وعلاوة على ذلك فان وجود دولة قوية في السودان من شأنه ان يكون اداة للضغط على مصر لانه سيمكن الاولى من التحكم في مياه النيل الذي يعتبر عماد حياة مصر.(٩٩)

الحركة الوطنية في السودان بين الحربين العالميتين :-

أ- بدايات الحركة الوطنية :-

ظهرت بواكير الحركة الوطنية في السودان ، حال انتهاء الحرب العالمية الاولى ، بفعل عوامل عديدة منها ، انتشار مبدأ حق الشعوب في تقرير مصائرها ، وكذلك بسبب اتساع التعليم في السودان ، والذي ادى بدوره الى نمو الروح القومية . كما كان لتزايد الاطماع البريطانية في السودان دور في اثارة سخط الشعب العربي في السودان ضد بريطانيا(١٠٠) . فعلى سبيل المثال راى هذا الشعب في مشروع الجزيرة الاروائي ، وسيلة لانتزاع الاراضي من اصحابها الشرعيين ، ووضعهم تحت رحمة الرأسمالية البريطانية . وأخيراً لعبت ثورة عام ١٩١٩ في مصر ، دوراً كبيراً في تصاعد النشاط الوطني في السودان . وقد جاء على لسان السلطات البريطانية قولها : « ان صغار الموظفين والطلبة قد بدأوا بالتأثر بالاحداث الجارية في مصر ، وأن اهتمام السودانيين عامة ، قد زاد زيادة كبيرة بتلك الاحداث منذ اواسط عام ١٩١٩ وان هذا الامر يستلزم الحيطة والحذر » .

كانت باكورة نشاط الحركة الوطنية في السودان ، عندما القى ضابط سوداني متقاعد ، خطبة خلال حفل ديني أقيم في جامع أم درمان في ٣٠ مايس عام ١٩١٩ ، دعا فيها السودانيين الى توحيد جهودهم مع المصريين لطرد البريطانيين . وقوبل الخطاب بعاصفة من التصفيق من قبل الحاضرين . وقد اوقفت السلطات البريطانية الضابط على الفور ، واصدرت بحقه حكماً بالسجن لمدة ثلاثة اعوام .

تصدت السلطات البريطانية بشدة لنشاط الحركة الوطنية في السودان ، واتبعت في سبيل ذلك وسائل مختلفة كالبطش . فقد كانت تلك السلطات تعاقب بشدة أي مواطن سوداني يؤمن بفكرة وحدة وادي النيل ، او يروج لها . كذلك عمدت الى التأثير في الرأي العام في السودان لمصلحتها عن طريق الاستعانة بزعماء القبائل ، وكبار رجال الدين . فمن ذلك انها وجهت الدعوة الى كبار رجال الدين

السودانيين . لزيارة بريطانيا في حزيران عام ١٩١٩ . بغية استمالتهم الى جانبها . كما أستغلت هولاء في عملية رفع عرائض تدعو الى استمرار الحكم البريطاني في السودان . وفي اصدار صحف تنادي ببقاء السودان بعيداً عن تأثيرات الحركة الوطنية في مصر .(١٠١)

على ان محاولات السلطات البريطانية لاعاقة نمو الحركة الوطنية في السودان . منيت بالاخفاق . واستمرت الحركة الوطنية في نشاطها الذي اتخذ طابعاً سرياً عن طريق اصدار المنشورات السرية .

فقد وزع منشور في تشرين الاول عام ١٩١٩ يحمل توقيع (جمعية الاعمال الملحة) حث الشعب العربي في السودان على الثورة . وطلب الاستقلال بالتعاون مع الحركة الوطنية في مصر . وندد المنشور بمشروع ري الجزيرة .(١٠٢) وفي ١٨ من الشهر نفسه . ارسلت خطابات الى عدد من كبار المسؤولين . والى الشخصيات المهمة في مدينة حلفا تخبرهم بتشكيل جمعيات سياسية كجمعية (اليد السوداء) و (اليد البيضاء) وتدعوهم الى وقف التعاون مع البريطانيين .

ب ـ نشاطات جمعية الاتحاد السوداني : ـ

تأسس تنظيم سياسي في ام درمان في عام ١٩٢٠ . عرف بجمعية الاتحاد السوداني . وكان معظم مؤسسيها من خريجي كلية غردون . ممن كانوا يشغلون وظائف صغيرة . وكان اسلوب عمل الجمعية يقوم على ارسال مذكرات احتجاجية الى الادارة البريطانية . ولزعماء الطوائف الدينية والعلماء ولصحيفة (الحضارة) وكان هؤلاء يوالون البريطانيين .(١٠٣)

وقد شكلت الجمعية فروعاً لها في عدد من المدن السودانية المهمة . وفي سبيل التعريف بمبادئها اقامت العديد من المسرحيات والندوات الادبية .(١٠٤) وكان شعارها السودان للسودانيين . والمصريون اولى بالمعروف . وارسلت الكثير من الطلبة السودانيين الى مصر لاتمام تعليمهم فيها . وكانت هذه الخطوة ـ تشكل من وجهة النظر البريطانية ـ مجازفة خطيرة . نظراً للقيود الشديدة التي كانت السلطات البريطانية تفرضها ضد الطلبة الذين يرومون الدراسة في مصر . فمن ذلك ان الطالب الذي يترك كلية غردون لمواصلة تعليمه في مصر يعتبر في اعين

السلطات البريطانية مجرماً لاتنصب نقمتها عليه وحده، بل تتعداه الى اسرته، والى من يظن
م ساعدوه على الهرب[١٠٥] .

وجدير بالذكر ان السلطات البريطانية، حالت دون التفاف المواطنين حول جمعية الاتحاد
ودانى، بل صرفتهم نهائيا عن الاهتمام بالشؤون السياسية، بان عمدت الى ترويج لعبة كرة
م، فاسست العديد من فرق كرة القدم في عام ١٩٢٢ بهدف الهاء المواطنين بسبقاتها،
وي ان حضور المباريات الرياضية كان الزاميا لكل العاملين في الدوائر الحكومية اعتبارا من
لى موظف فيها حتى اصغرهم، وقد زاد هذا التصرف من كراهية المواطنين لكل ماهو
طاني[١٠٦]، وعلى اية حال، لم تعش جمعية الاتحاد السوداني طويلاً، إذ سرعان ما
لت[١٠٧] .

ومن جانب اخر، استمرت موجة المنشورات المعادية للبريطانيين والمنددة بسياساتهم في
ام ١٩٢٠[١٠٨] . كما واستغل السودانيون كل الفرص للتعبير عن استيائهم من البريطانيين فمن
ك انهم استغلوا مناسبة الزيارة التي قام بها اللنبي الى السودان في عام ١٩٢١، للتحريض على
ثورة ضد البريطانيين والعمل على اجلائهم بالتعاون مع اشقائهم المصريين. وفي الاحتفالات التي
رت في السودان في كانون الثاني عام ١٩٢٢ بمناسبة يوم الملك (وهو ذكرى زيارة الملك
لانكليزي جورج الخامس للسودان) وزعت منشورات تندد بالاحتفالات وتنعت هذا اليوم بـ
يوم استرقاق الشعب) وناشدت المواطنين اعلان الحداد فيه(١٠٩) . وفي ١١ مايس عام
١٩٢١، وضعت السلطات البريطانية يدها على منشور بعنوان "حقوق الامة السودانية" تضمن
هجوما عنيفا على السياسة البريطانية، خلاصته انها ترمي الى فصل السودان عن مصر ضد
رغبة الشعب العربي في السودان، وانها اثقلت كاهل المواطنين بالضرائب، واغتصبت
اراضيهم، وحرمتهم من المناصب المهمة[١١٠] .

كان المنشور انف الذكر مذيلاً بتوقيع الملازم اول علي عبداللطيف، وهو من ضباط الفرقة
السودانية التاسعة، وقد نشرته صحيفة الاخبار القاهرية، واثار المنشور غضب السلطات
البريطانية، فاعتقلت علي عبداللطيف، وقدمته الى المحاكمة وحكم عليه بالسجن لمدة عام
واحد . وتسبب هذا الحكم في فصله نهائيا من الجيش[١١١] .

وفي عام ١٩٢٣ وزع منشور اخر في سائر انحاء السودان بعنوان الى السودانيين

الاحرار) الصقت اعداد كبيرة منه في شوارع الخرطوم ، وام درمان ، والخرطوم بحري . وفيه هجوم شديد على مشروع ري الجزيرة .(١١٢)

جـ ـ نشاطات جمعية اللواء الابيض

في نيسان عام ١٩٢٣ ، اسس علي عبد اللطيف جمعية باسم جمعية اللواء الابيض ، وتشكلت على غرار جمعية الاتحاد السوداني ، وانضم اليها عدد من ضباط الجيش ، وموظفي الحكومة والفنيين والتجار . وكان يطلب من كل عضو يروم الانتساب الى الجمعية دفع رسم اشتراك قدره عشرون قرشاً .(١١٣)

وقد نجحت الجمعية في تأسيس فروع لها في المدن السودانية المهمة ، وكان من بين اهداف الجمعية حسبما نص عليه دستورها خدمة المثل الوطنية في السودان ، ومناهضة فصل السودان عن مصر(١١٤) ولم تقتصر عضوية الجمعية على السودانيين فقط بل شملت قسماً من المصريين الذين يعملون في السودان . وكان شعار الجمعية علم ابيض اللون ، تتوسطه خارطة نهر النيل ، وفي ركن منها العلم المصري الاخضر اللون ، وقد كتبت على ارضيته عبارة (إلى امام)(١١٥)

استهلت جمعية اللواء الابيض نشاطها باللجوء الى الاضرابات العامة . لكن ضعف التنظيم النقابي ، وانتشار البطالة ، وتعرض الموظفين الى التشريد والاضطهاد ، جعل من هذا الاسلوب غير ذي فائدة عملية . وفي محاولتها للحصول على تاييد شعبي واسع النطاق كالذي حصلت عليه ثورة ١٩١٩ في مصر ، سعت جمعية اللواء الابيض الى كسب سكان الأرياف الى صفوفها ، فاوفدت لهذا الغرض بعضا من رجالها الى كردفان ، وبور سودان ، او الهدندوه والامرار بوصفها ابرز القبائل في شرق السودان وقد اثمرت جهود هؤلاء سيما وان ابناء الريف عانوا كثيرا من ظلم واستغلال السلطات البريطانية .(١١٦)

وقد بلغ نفوذ الجمعية حدا شجع بعض فئات المثقفين الذين كانوا يتعاطفون مع البريطانيين على تغيير موقفهم منهم . واخذوا يطالبون البريطانيين بتنفيذ عدد من المطالب . بل انهم عقدوا اجتماعا في دار المفتي ، حضره الزعماء التقليديون ، ورفعوا في ختامه عريضة دعوا فيها الى الغاء احتكار السكر ، وتخفيض الضرائب والاسعار ، والسماح للسودانيين بدخول مجلس الحاكم العام ، وتحسين مشروع ري

الجزيرة . ورفع المستوى المعاشي للعاملين فيه . كذلك اعلن عدد من التجار السودانيين عن شجبهم للسياسة البريطانية في السودان .(١٣٧) وازاء اشتداد ساعد الحركة الوطنية في السودان . بادرت السلطات البريطانية بالعمل على الحد من نشاطها . وبدأت باتخاذ اجراءات من شأنها اظهار تعلق السودانيين بالبريطانيين . ولتحقيق هذا الهدف عمدت الى حملة لجمع التواقيع من المواطنين بالترغيب تارة وبالترهيب تارة اخرى . وبالاستعانة برؤساء الوحدات الادارية ، وببعض الشخصيات السودانية المتنفذة ولا سيما الدينية منها .

وقد انبرت جمعية اللواء الابيض للرد على هذه الممارسات . فعقدت لجنتها التنفيذية اجتماعا في ايار عام ١٩٢٤ . قررت على اثره ارسال برقية احتجاج الى حاكم السودان العام . استنكرت فيها المساعي التي تقوم بها السلطات البريطانية لابعاد السودان عن مصر . كما اتخذت اللجنة ذاتها قراراً بارسال وفد عنها الى مصر لكي يبدي رايه في مستقبل بلاده امام البرلمان المصري . وبدأت حملة لاعداد عرائض يعلن موقعوها عن ولائهم لمصر . وقارب عدد هذه العرائض (٥٠٠) عريضة . وكانت تتصدرها عبارة « نحن شعب جنوب الوادي . لا نريد بقاء اي جندي اجنبي في بلادنا . وقد وكلنا سعداً للمطالبة بحقنا في الحرية والسيادة »(١٣٨)

تالف وفد جمعية اللواء الابيض الى مصر من عضوين يمثل احدهما الجناح السياسي للجمعية . فيما يمثل الاخر الجناح العسكري لها . وغادر الخرطوم في ١٤ حزيران عام ١٩٢٤ . لكن السلطات البريطانية اعترضت طريقهما . واعادتهما الى السودان . ولما بلغت علي عبد اللطيف انباء اعادة الوفد ، قرر تنظيم مظاهرة لاستقباله في محطة قطار الخرطوم . وحالت السلطات البريطانية دون نجاح المظاهرة . حينما انزلت الوفد في محطة الخرطوم بحري . ولم يجد المتظاهرون الذين وصل عددهم الى (٣٠٠) رجل احداً يستقبلوه في محطة الخرطوم .(١٣٩)

كذلك استغلت جمعية اللواء الابيض مناسبة وفاة مأمور مركز مدينة ام درمان وهو مصري ، للقيام بمظاهرة ضخمة في ١٩ حزيران عام ١٩٢٤ طافت مدينة ام درمان . وهتف المتظاهرون خلالها بسقوط البريطانيين وبحياة مصر وسعد زغلول . وفي اليوم التالي القى امام جامع الخرطوم خطبة طويلة ، ندد فيها بسياسة الحكومة فيما يختص بمشروع ري الجزيرة ، والضرائب ، واسرعت السلطات البريطانية بالقاء القبض على الامام واحالته الى المحاكم بتهمة خروجه عن مقتضيات واجباته وتحريضه على العصيان .(١٤٠)

وقد اشار تقرير بريطاني رسمي الى ان المتظاهرين رشقوا البوليس بالحجارة، وان الفزع والرعب يخيمان على مدينة الخرطوم. وطرق اسماع السلطات البريطانية انباء مؤداها ان المظاهرات المقبلة ستكون اشد عنفاً، مما حملها في ٢٢ حزيران عام ١٩٢٤ على فرض الحظر على التظاهرات. لكن جمعية اللواء الابيض تجاهلت الحظر، ونظمت في اليوم التالي مظاهرة جديدة رفعت خلالها صور سعد زغلول. وهاجمت السلطات البريطانية المتظاهرين، واعتقلت قادتهم، ولو ان هذا لم يفت في عضد الجمعية، فنظمت مزيدا من المظاهرات ولا سيما في مدينة الخرطوم. (١٣١)

ازدادت كراهية السودانيين للبريطانيين، واتسع نطاق الخطب المناوئة لهم. ففي ٢٧ حزيران عام ١٩٢٤، القى شاب خطبة في جامع ام درمان، هاجم فيها البريطانيين، وقد أعتقل الشاب على الفور. وفي ٢٤ تموز من العام نفسه، اعتقلت السلطات البريطانية علي عبد اللطيف بينما كان يلقي خطابا في احدى التظاهرات واحالته الى المحاكم فحكم عليه بالسجن مدة ثلاث سنوات. اثار اعتقال علي عبد اللطيف موجة غضب عارمة ضد السلطات البريطانية فبعد يوم واحد من اعتقال علي عبد اللطيف القى شاب خطبة حماسية في جامع حلفا، فيما القى شاب اخر خطبة اخرى في جامع الابيض وتم اعتقاله على الاثر.

وتجددت التظاهرات في بور سودان على اثر وصول قطار يقل ثلاثة من المتهمين بتنظيم مظاهرات الخرطوم. وقد واجهت السلطات البريطانية هذه النشاطات الوطنية باساليب قمعية. (١٣٢)

وفي ٣٠ تموز عام ١٩٢٤، داهمت السلطات البريطانية مقر جمعية اللواء الابيض، واعتقلت عددا من قادتها واعضائها، حتى جاوز عدد من اعتقلتهم في اليوم نفسه من اعضاء الجمعية (١٠٠) معتقل. وحري بالذكر ان الجمعية كانت تصدر تعليمات الى اعضائها ممن يتصدرون قيادة المظاهرات، تقضي بعدم الفرار من البوليس، وبمواجهة الاعتقال. وهذا ما افقد الجمعية كثيرا من اعضائها، وادى بالتالي الى ضعف تنظيمها. (١٣٣)

د ـ ثورة آب عام ١٩٢٤ ـ

بدأت هذه الثورة بسلسلة من حوادث صغيرة، سرعان ما تطورت الى ثورة

عارمة شملت كل ارجاء السودان ، شارك فيها افراد الجيش الى جانب اعضاء الجمعيات السياسية المختلفة .

ففي مستهل شهر آب عام ١٩٢٤ اندلعت الثورة في الخرطوم حينما حاول مواطن مزاولة نشاط وطني في جامع ام درمان ، ولكن السلطات البريطانية اعتقلته على الفور . وفي صباح يوم ٩ آب خرج طلبة المدرسة الحربية في تظاهرة تصدرتها صورة سعد زغلول ، وساروا باتجاه مقر الاورطة الرابعة المصرية فتوقفوا عندها ، وهتفوا بوحدة وادي النيل ، ثم قصدوا محطة سكة حديد الخرطوم ، التي كانت تغص بجموع من المسافرين والمودعين فانضم قسم من هؤلاء الى التظاهرة ، ثم عرج المتظاهرون على منزل علي عبد اللطيف فهتفوا بحياته ، ثم انطلقوا الى الخرطوم بحري ، فاحتشدوا امام السجن الذي كان ينزل فيه علي عبد اللطيف ، وهتفوا بحياته . وعندما تفرقت التظاهرة ، وعاد الطلبة الى مدرستهم ، استطاعت السلطات البريطانية باساليب الخداع ان تغريهم على تسليم اسلحتهم اليها ، ثم القت القبض عليهم بعد ذلك واودعتهم السجون .(١٢٤)

اثارت هذه التظاهرة مخاوف كبيرة لدى السلطات البريطانية ، إذ ان اغلب طلبة المدرسة الحربية ينحدرون من اسر متنفذة ، يحتمل ان تتأثر ولو في المدى البعيد بمواقف ابنائها الوطنية .

وفي مساء اليوم نفسه (٩ آب) ردد مواطن من ابناء الخرطوم هتافات وطنية ، وعندما هم احد رجال الشرطة باعتقاله هاجمه الناس بالحجارة ، ثم تطور الحادث الى تظاهرة كبيرة والى اشتباكات مع رجال الشرطة ، انتهت باعتقال (١٧) مواطنا .

وبفعل اتساع نطاق الثورة ،عمدت السلطات البريطانية الى طلب تعزيزات عسكرية ، ووصلت يوم (١٩) آب فرقة عسكرية مع مجموعة من الطائرات مما ادى الى تغير الموقف لصالح البريطانيين .(١٢٥)

اما في عطبرة ، فقد انتهز المواطنون فرصة مرور قطار يقل بعضا من السجناء السياسيين ، قادما من بور سودان في طريقه الى الخرطوم يوم ٩ آب للاجتماع في المحطة لتحية السجناء ، وقد انضم اليهم عدد من المصريين العاملين في فرقة السكك الحديدية بالمدينة .

وفي صباح اليوم التالي (١٠ آب) اخذ رجال فرقة السكك الحديدية والتي كان مقرها في مدينة عطبرة ، بتحطيم ورش ادارة الهندسة ، وواصل هؤلاء مظاهراتهم يوم ١١ آب ، واشتبكوا مع القوات البريطانية مما اسفر عن استشهاد اربعة منهم وجرح (١٦) رجلاً . ولما لاح ان الثورة ستعم كافة منتسبي هذه الفرقة وهم من المصريين الذين كانوا يعملون على طول السكك الحديدية ، فقد تم تجميعهم في عطبرة في (١٧) آب على امل اعادتهم الى مصر ، ومحاكمة المحرضين منهم .

وقد احتجت الحكومة المصرية على هذه الخطوة ، واقترحت تشكيل لجنة لتقصي الحالة ، وللعمل على تهدئة الموقف ، لكن الحكومة البريطانية رفضت الاقتراح بشدة ، بزعم انها هي وحدها المسؤولة عن حفظ النظام في السودان . وواصلت اجراءاتها ضد الثورة .

والى جانب احداث الخرطوم وعطبرة ، اجتاحت الثورة مناطق اخرى من السودان . ففي بور سودان أعتقل احد الموظفين في ٥ آب بحجة تحريضه على الثورة . وعلى اثر هذا ، اعلن زملاء المعتقل اضراباً عن العمل تضامناً مع زميلهم .

وفي ٨ آب القى علي ملاسي خطبة في جامع المدينة ، وبعد ذلك بيومين قاد مظاهرة قام بها رجال فرقة السكك الحديدية . وفي ١١ آب احتشدت مجموعتان من منتسبي فرقة السكك الحديدية تأهباً لأي صدام مع الشرطة . في الوقت الذي كان فيه علي ملاسي يبذل جهوده لدفع قبائل الهدندوة والامرار الى الثورة .

ونتيجة لهذه التطورات اضطرت سلطات الميناء الى استدعاء الطراد البريطاني (ويموث) كما وصلت تعزيزات لقوات الشرطة من سائر انحاء المديرية . وفي نفس الوقت افلح ناظر الامرار ، بعد لأي في تهدئة رجال قبيلته بعد ان اوشكوا على اعلان الثورة .

وفي ١٨ آب عام ١٩٢٤ ، نظم المواطنون مظاهرة احتجاج ضد حملة الاعتقالات التي كانت السلطات البريطانية شنتها في اليوم السابق ، وهدأت الحالة نسبيا حتى يوم ٢٩ آب عندما القى عضو في جمعية اللواء الابيض خطبة مثيرة في جامع المدينة مما ادى الى اعتقاله ، ومن ثم صدور حكم بسجنه لمدة عامين ونصف العام علاوة على دفع غرامة مقدارها (٥٠) جنيها .

وفي شندي استغل المواطنون فرصة وصول تعزيزات الى المدينة في العاشر من آب، في طريقها لمحاربة الثورة في عطبرة، فنظموا مظاهرة حاشدة هتفوا خلالها هتافات معادية للبريطانيين، ثم اعقبوا ذلك بمظاهرة اخرى في (١٤) آب اسهم فيها عدد كبير من المواطنين. وقد حمل هذا السلطات البريطانية على اصدار اوامر في ١٦ آب عام ١٩٢٤، تقضي بفرض حظر على الاجتماعات العامة بالمدينة.

وفي مدينة الابيض، وهي مركز مديرية كردفان، عقد ضابط اجتماعا مع اعضاء من فرع جمعية اللواء الابيض في المدينة، تدارس فيه خطة مؤداها ارسال لجنة من بعض الاشخاص الى قبائل كردفان ودارفور لحثها على المساهمة في الثورة ولما وصل خبر هذا النشاط الى السلطات البريطانية، ابعدت الضابط الى الخرطوم. وقد احتشد المواطنون لتحيته يوم رحيله، وهتفوا باستقلال مصر والسودان. وفي النيل الازرق، تم استدعاء احد الضباط بتهمة تحريضه القوات السودانية المرابطة بود مدني على الثورة.(١٣٦)

وعلى اية حال، استطاعت السلطات البريطانية اخماد الثورة، وبدأت على التو سياسة ترمي الى استئصال الحركة الوطنية، فشرعت بحملة اعتقالات واسعة في الخرطوم وام درمان وصلت ذروتها في ايلول عام ١٩٢٤، وكان معظم المعتقلين من موظفي الحكومة. واخذت المحاكم تصدر سيلا من الاحكام بالسجن وبدفع الغرامات ضد الثوار. كما اصدرت المحكمة العسكرية ـ والتي تعمدت السلطات البريطانية اشراك المصريين في عضويتها بهدف الوقيعة بين السودانيين والمصريين(١٣٧) ـ احكامها ضد عدد من طلاب المدرسة الحربية بتهمة مشاركتهم في المظاهرات التي اندلعت في ٩ آب، حيث حكم على خمسة منهم بالسجن لمدة خمس سنوات، وعلى اثنين آخرين بالسجن لمدة عامين مع جلدهما (٢٠) جلدة.(١٣٨)

وقد تسببت سياسة الارهاب التي اتبعتها السلطات البريطانية ضد الحركة الوطنية في السودان في عودة الاخيرة الى اسلوب العمل السري، فعادت المنشورات الى الظهور من جديد في تشرين الاول عام ١٩٢٤، وكانت تحث السودانيين على مواصلة النضال.

هـ ـ مصرع لي ستاك حاكم السودان العام واثره في مستقبل السودان .

شهدت وزارة سعد زغلول ـ وكما اشرنا الى ذلك من قبل ـ حادث مقتل لي ستاك حاكم السودان العام وقائد الجيش المصري في ١٩ تشرين الثاني عام ١٩٢٤ . وقد استغلت الحكومة البريطانية الحادث اسوا استغلال . فاستخدمته وسيلة لتنفيذ سياسة كانت قد خططت لها من قبل . وجاءت حادثة مقتل لي ستاك لتتخذ منها ذريعة لتنفيذها . وكان من معالم هذه السياسة الاطاحة بوزارة سعد زغلول ذات الاتجاهات الوطنية وتصفية الوجود المصري في السودان والانفراد بحكمه ، سيما وان تطور الاحداث في مصر ابتداءً بنشوب ثورة عام ١٩١٩ وانتهاءً بتسنم حكومة وطنية مسؤولية الحكم فيها في عام ١٩٢٤ ، أقض مضاجع بريطانيا ، وحملها على الاعتقاد بان وجودها ومصالحها في مصر باتت مهددة ، ولا بد من التفكير بايجاد بديل لمصر ، وهكذا ازداد تمسك البريطانيين بالسودان .

ففي ٢٢ تشرين الثاني عام ١٩٢٤ سلم اللنبي المندوب السامي البريطاني في مصر مذكرة الى الحكومة المصرية احتوت على سبعة مطالب . كما قدم مذكرة ثانية في اليوم نفسه ، ضمنها مطالب اخرى . وفي الوقت الذي قبلت فيه الحكومة المصرية بعض المطالب ، رفضت الاستجابة لبعضها الاخر ، واضطرت الوزارة الى تقديم استقالتها . فخلفتها حكومة جديدة استسلمت لمطالب البريطانيين . واصدرت اوامر الى القوات المصرية بمغادرة السودان .

وما ان شرعت السلطات البريطانية باجلاء القوات المصرية عن السودان حتى هبت الحركة الوطنية لمقاومة هذا الاجراء . اذ اعرب السجناء السياسيون السودانيون عن سخطهم على سحب الجيش المصري بان استولوا على السجن ، وابدوا عن استعدادهم لخوض نضال من اجل مصر والسودان .

كما رفضت قوات المدفعية المصرية في الخرطوم بحري ، مغادرة السودان إلا بامر من ملك مصر . وما ان علمت احدى الكتائب السودانية وهي الكتيبة الحادية عشرة بموقف المدفعية المصرية ، حتى تحركت في ٢٧ تشرين الثاني عام ١٩٢٤ بسلاحها وذخيرتها من الخرطوم نحو الخرطوم بحري للانضمام الى المدفعية المصرية ومقاومة البريطانيين .(١٢٩) وكانت هذه القوة تتالف من نحو مائة جندي يقودها عدد من الضباط وقد اعترضتها قوة بريطانية ، ودارت معركة على شاطيء النيل الازرق ، استمرت يوما كاملا ، ابلى السودانيون فيها بلاءً حسناً . وكان النصر

الى جانبهم في بادىء الامر حيث انزلوا بالبريطانيين خسائر جسيمة ، لكن السلطات البريطانية عززت قواتها بحيث اصبحت من الكثرة في العدد والعتاد ما لا طاقة للقوة السودانية الصغيرة على مقاومتها . وقد زاد في الطين بلة تناقص ذخيرة الثوار مما اضطرهم الى الاحتماء بمستشفى الجيش المصري وبالمنازل المحيطة به ، واستمروا في مقاومة الجيش البريطاني وتكبيده مزيدا من الخسائر . وقد جاء في تقرير ارسله اللنبي الى تشمبرلن قوله : « حاولت اثناء ذلك كتيبتان (بريطانيتان) اكثر من مرة اقتحام المنازل التي يعتصم بها الثوار ، فردوا في كل مرة على اعقابهم بخسائر فادحة ، مما حملني على اصدار امر بتفادي الخسائر قدر الامكان » .

وابدت السلطات البريطانية مخاوف من اتساع نطاق الثورة . والى هذا اشار اللنبي في برقية ارسلها في كانون الاول عام ١٩٢٤ قال فيها : « إن التمرد في السودان ، خلق حالة متأزمة وانه ما لم يعالج بحكمة فقد يؤدي الى نتائج بعيدة المدى في السودان »(١٣٠) .

وبعد قصف وحشي للمستشفى ، ولبعض الدور المحيطة به ، استشهد بعض من قادة الثورة ، فيما أسر بعضهم الاخر . وفي هذه الاثناء وصلت رسالة من الحكومة المصرية ، ناشدت فيها الجيش المصري بالعودة الى مصر .(١٣١)

قوبلت ثورة الكتيبة الحادية عشرة بتأييد من القطعات العسكرية الاخرى . ففي مساء يوم ٢٨ تشرين الثاني عام ١٩٢٤ ، اعلن احد الضباط عن تضامنه مع الكتيبة الحادية عشرة ، ونجح بمساعدة عدد من رفاقه في الاستيلاء على مخازن السلاح . لكن الحركة سرعان ماقضي عليها واعتقل القائمون بها . وفي مدينة واو الواقعة في جنوب السودان ، ثارت الكتيبة الثالثة عشرة . كما حاول ضابط في مدينة الابيض تحريض القطعات العسكرية المرابطة فيها على الثورة ، لكنه اوقف ، والقي به في السجن .(١٣٢)

وفي تالودي وهي مركز مديرية جبال النوبا ، رفض للضباط السودانيون الامتثال لاوامر تقضي بترك طابور مصري تقرر ترحيله الى مصر ، واصروا على الانسحاب معه الى مصر ، لكن القي القبض عليهم فيما بعد .(١٣٣)

اما عن مصير قادة الثورة ، فقد اتخذت بحقهم عقوبات شديدة ، اذ سيق ثوار الكتيبة الحادية عشرة الى محكمة عسكرية ، اصدرت حكماً بالاعدام ضد اربعة منهم ، وتم تنفيذ الحكم بثلاثة منهم رميا بالرصاص في ٥ كانون الاول عام ١٩٢٤ .

وقد اعلن السودانيون الحداد العام على ارواحهم وصدرت احكاماً بالسجن ضد ثوار آخرين حيث تعرضوا الى شتى ضروب القسوة والتعذيب داخل سجونهم .(١٣٤)

وتعرض رجال الحركة الوطنية من غير العسكريين الى معاملة مماثلة فزج بقسم منهم في السجن ، فيما نفي قسم آخر منهم الى مستنقعات بحر الغزال . وبفعل هذه الاجراءات انكمشت الحركة الوطنية في السودان .

وبالقضاء على الثورة ، اصبح خروج القوات المصرية من السودان امراً مفروغاً منه ، وتم بالفعل خروج آخر جندي مصري من السودان في مطلع كانون الاول عام ١٩٢٤ (١٣٥)

وأسس في العام التالي جيش من السودانيين وحدهم ، عرف بـ (قوة دفاع السودان) وغدا يأتمر باوامر الحاكم العام . واقفلت المدرسة الحربية في السودان ، بزعم انها تشكل بؤرة ثورية خطيرة . كما الغيت مدرسة (وكلاء المآمير) التي كانت تعد السودانيين للوظائف الادارية . كذلك أبعد المدرسون والموظفون المصريون من السودان . وفرضت رقابة مشددة على الاتصالات بين مصر والسودان ، ووضعت عراقيل بوجه السودانيين الذين يرومون الدراسة في مصر . كما حيل دون دخول الصحف المصرية الى السودان ، وغدت حيازتها تشكل جناية يحاسب عليها القانون .

وواصلت بريطانيا اجراءاتها الرامية الى ازالة اي اثر لمصر في السودان . وبايحاء منها ، عقد مجلس علماء السودان ، ومفتي الديار السودانية ، اجتماعاً في ٣٠ كانون الاول عام ١٩٢٤ ، قرروا فيه ابطال الدعوة لملك مصر من على المنابر في خطب صلاة الجمعة والاعياد ، والعودة الى العبارة التقليدية « خليفة المسلمين » . كما منعت بريطانيا عزف النشيد المصري في المناسبات الرسمية ، بل وصل الامر ان قررت السلطات البريطانية رصد مبلغ (٦٠٠) الف جنيه لانشاء خط استحكامات بين مصر والسودان . وكان من الواضح ان الغرض من انشائه هو الحيلولة دون عودة الجيش المصري الى السودان .(١٣٦)

د ـ دور المدارس الفكرية : ـ

ومن جانب آخر ، شهد السودان خلال الفترة التي اعقبت ثورة عام ١٩٢٤ تطورات مهمة منها ، نشوء المدارس الفكرية مثل مدرسة ابي روف ، التي اعتبرت

لتبنيها للحركة الوطنية . فكان من مبادئها مناهضة الوجود الاستعماري في السودان ومصر ، والدعوة الى وحدة وادي النيل . وقد اتخذت هذه المدرسة في البداية من البيوت ، ومن نادي الخريجين في ام درمان مسرحاً لنشاطها . ثم تحولت الى العمل الصحفي ، حيث شنت في صفحات صحفها ولاسيما صحيفة (حضارة السودان) حملات عنيفة ضد خصوم الوحدة في مصر ، علاوة على نشرها قصائد شعرية تتغنى بالعروبة ، ومقالات تستهدف تعميق الوعي السياسي بين المواطنين . (١٣٧)

ز ـ اعتصام طلبة كلية غردون : ـ

وفي عام ١٩٣١ اعلنت السلطات البريطانية الحاكمة في السودان عن اجراء تخفيضات في مخصصات طلبة كلية غردون من ثمانية جنيهات الى خمسة جنيهات ونصف الجنيه ، بحجة معالجة الضائقة الاقتصادية التي تولدت عن الازمة الاقتصادية العالمية . وقد قاوم الطلبة هذا الاجراء في الحال ، سيما وان التخفيض كان يسري على السودانيين وحدهم دون البريطانيين ، واضربوا عن الدراسة ، واعتصموا في الاقسام الداخلية . وحاول الطلبة الحصول على دعم من زملائهم الخريجين . وتبنى نادي الخريجين القضية ، فدعا اعضاءه الى اجتماع عام لتدارس الموضوع . وساند الخريجون الطلبة وتدخلت بعض الشخصيات السودانية المتنفذة في الامر ، واقنعوا الحكومة بضرورة اعادة النظر في قرارها ، واخيراً وتحت ضغط الاضراب ، ووساطة الشخصيات السودانية ، رفعت الحكومة مخصصات الطلبة الى ستة جنيهات ونصف الجنيه .

انتهت مسألة مخصصات طلبة كلية غردون بنتائج في صالح الحركة الوطنية . فقد ايقن الطلبة والخريجون ان سبب انتصارهم يعود الى تضامنهم ، وأن بوسعهم إذا ماستمروا على هذا التضامن ان يؤلفوا قوة ينازلون بها السلطات البريطانية . (١٣٨)

ح ـ مؤتمر الخريجين العام : ـ

ظهر في عام ١٩٣٥ اول نداء لاقامة تنظيم للخريجين على لسان جريدة الفجر ، عندما دعت الى تأسيس جمعية للخريجين تتولى الدفاع عن حقوقهم ، والاتصال مع الادارة البريطانية في الشؤون التي تتعلق بظروف عمل الخريجين في الدوائر الحكومية .

ومن جانب آخر ، قابل السودانيون معاهدة عام ١٩٣٦ ، التي عقدت بين مصر وبريطانيا ، بفتور لانه لم يكن لهم دور فيها ، على الرغم من ان قضية بلادهم كانت من بين المسائل التي تطرقت اليها المعاهدة ، وعزموا على اخذ زمام المبادرة بيدهم . وتحسن الاشارة في هذا الصدد ، إلى ان ملاحق معاهدة عام ١٩٣٦ ، سمحت لمصر باستعادة قسط من مكانتها في السودان . إذ نصت على عودة وحدة مصرية الى السودان شريطة ان تبقى تحت امرة الحاكم العام ، وتعهدت السلطات البريطانية بعدم التعرض للمصريين الذين يرومون دخول السودان ، باستثناء بعض الحالات . (١٣٩)

وفي عام ١٩٣٧ ، ازداد تعلق الخريجين بفكرة تأسيس تنظيم لهم . وفي ١٢ شباط من العام التالي انعقد اجتماع حضره (١١٨٠) خريجاً . حضره كل الخريجين المقيمين في العاصمة المثلثة تقريباً ، اضافة الى عدد قليل منهم ممن كانوا يقيمون خارج العاصمة . وصادق الاجتماع على الدستور المقترح ، واطلق على المؤتمر اسم « مؤتمر الخريجين العام » . وكان من اهدافه السهر على مصالح السودان والخريجين .

ومنح حق العضوية الى خريجي المدارس السودانية ، والمعاهد التي هي فوق مستوى الدراسة الاولية . وتم انتخاب لجنة من ستين عضواً ، ثم انتخبت هذه اللجنة ، لجنة تنفيذية قوامها (١٥) عضواً وعلى هذه الشاكلة برز مؤتمر الخريجين العام على مسرح السياسة في السودان .

لم يطالب مؤتمر الخريجين العام الادارة البريطانية ان تعترف به رسمياً كحزب او هيئة سياسية ، كما لم يدع لنفسه حق تمثيل كافة قطاعات الشعب ، وانما اكتفى بالتعبير عن اراء اعضائه فقط . (١٤٠)

ط ـ نشاطات مؤتمر الخريجين العام : ـ

تركزت نشاطات مؤتمر الخريجين العام في البداية على الشؤون التنظيمية ، والادارية ، والسعي الى تأسيس فروع للمؤتمر في المدن الكبرى . ولو ان ذلك لم يحل دون ابداء بعض من الاهتمام بالشؤون السياسية . وقد عارضت السلطات البريطانية اي نشاط يقوم به المؤتمر نيابة عن اعضائه العاملين في الدوائر الحكومية .

ي ـ مساوئ الحكم البريطاني في السودان : ـ

سعت السلطات البريطانية في السودان الى تحجيم حركة التعليم ، بأن حالت دون التوسع في انشاء المدارس الابتدائية والمتوسطة . وقد كان الغرض الاساسي منهما سد احتياجات الادارة البريطانية من صغار الموظفين . ولم تفلح كل تلك الجهود التي بذلت لحمل السلطات البريطانية على فتح اية مدرسة طيلة السنوات العشر التي تلت عام ١٩٢٤ ، باستثناء تلك التي اسست في جنوب السودان . وكان مايرصد من اموال لتمويل التعليم حتى عام ١٩٣٦ ، لا يشكل سوى ٣ ٪ من الميزانية العامة وبلغ متوسط ماينفق على تعليم المواطن السوداني حتى عام ١٩٢٨ ، قرشاً ونصف القرش .(١٤١)

وقد تحمل الطلبة السودانيون القسط الاكبر من غضب السلطات البريطانية . فالزمت هذه السلطات طلبة كلية غردون ، بان يقوموا بأنفسهم ـ من قبيل العقاب ـ بكنس غرفهم في الاقسام الداخلية ، وبترتيب اسرّتهم ، وبحمل اكوام من الرمال منها عقب انتهائهم من الدوام . بل انها باعت بالمزاد العلني ، جميع مقاعد المدارس الابتدائية ، والزمت تلامذتها بان يفترشوا الحصير .(١٤٢) وفوق كل ذلك كانت تغري الطلاب على الالتحاق في سلك الادارة الحكومية كي يصبحوا موظفين لديها ، وعندها يحرّم عليهم مزاولة اي نشاط سياسي .

كذلك سعت السلطات البريطانية الى تمزيق وحدة السودان ، عن طريق اثارة النعرات القبلية ، ومحاولة خلق كيانات هزيلة فيه . فمن ذلك انها منعت ابناء شمال السودان من زيارة جنوب السودان دون اذن خاص منها . كما حظرت على مواطني الجنوب مغادرة منطقتهم الإ بترخيص منها ايضاً . كما اطلقت يد البعثات التبشيرية في جنوب السودان . وأناطت بها مهمة الاشراف على التعليم فيه . وقد ترتب على هذه الخطوة ان غدا جنوب السودان بعيداً عن اللغة العربية والثقافة العربية .

وقد زادت الازمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩ ـ ١٩٣٢) من معاناة الشعب العربي في السودان ، وبخاصة المزارعين ورعاة الماشية . إذ تقلصت مساحة الاراضي المزروعة بنسبة ٢٢ ٪ ، وانخفض سعر القطن ، وهو المحصول الرئيس في السودان بنسبة تتراوح بين ٥٠ الى ٧٥ بالمائة . وتدنى كذلك سعر الصمغ العربي الى النصف . كما قلت ايرادات مستأجري اراضي مشروع ري الجزيرة من الفلاحين

بنسبة ٦١ ٪ . وتفشت البطالة نتيجة لذلك . وانحط المستوى المعاشي للمواطنين بشكل ملحوظ . (١١٢)

السودان اثناء الحرب العالمية الثانية : ـ

حينما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، التزم مؤتمر الخريجين العام جانب بريطانيا ، مما حدا بالاخيرة الى التعاون مع المؤتمر لدرجة انها اشركت ممثلين عن لجنته التنفيذية في الاشراف على محطة الاذاعة السودانية . كما سمحت باذاعة بيانات حول الحرب باسم الموتمر . (١١٣)

وحدث ان قام علي ماهر رئيس وزراء مصر بزيارة الى السودان في شباط عام ١٩٤٠ بدعوة من الحاكم العام في السودان . وقد انتهز المؤتمر الفرصة فدعا علي ماهر الى حضور حفل اقيم على شرفه . وخلال ذلك شرح اعضاء المؤتمر اهداف مؤتمرهم لعلي ماهر ، مما جعل الاخير يغير نظرته الى الموتمر الذي كان يعده من قبل كأداة بيد الانكليز ، ودفعه هذا الى تلبية مطالب الموتمر في تقديم دعم مالي له بغية تمكينه من تحقيق اهدافه . واثار اتصال الموتمر المباشر مع رئيس وزراء مصر غضب السلطات البريطانية ، فبدأت تغير من موقفها منه . اما الموتمر فقد احس بانه حقق انتصاراً كبيراً حيث نال تأييد مصر بعد ان كانت تقف منه موقفاً عدائياً . (١١٤)

وحدث ان انعقد اجتماع بين تشرشل رئيس الحكومة البريطانية ، وروزفلت رئيس الولايات المتحدة في آب عام ١٩٤١ ، اسفر عن التوقيع على ميثاق عرف بميثاق الاطلنطي ، وكان مما ورد فيه اعطاء الشعوب حق تقرير المصير عقب انتهاء الحرب . وقد لاقى الميثاق ترحيباً قوياً من قبل الشعوب ومنها الشعب العربي في السودان . وعلاوة على هذا كان السودان يتابع باهتمام عدداً من التطورات التي كانت تحدث خلال الحرب مثل البعثة التي اوفدت الى الهند لبحث مسألة منحها الاستقلال وهي بعثة كريبس ، والبيانات المتتالية التي اصدرتها حكومة الوفد في مصر حول استقلال مصر . (١١٦)

حملت كل تلك التطورات الحركة الوطنية في السودان على تصعيد نشاطها . ففي ٣ نيسان عام ١٩٤٢ رفع مؤتمر الخريجين العام مذكرة الى الحاكم العام في السودان تضمنت مناشدة الحكومتين المصرية والبريطانية ، اصدار تصريح مشترك